علاقة الشعر العربي القديم بالأدب العبري في العهد القديم

بقلم المستشرق جارلز ليال

تعريب : الدكتور عبدالله أحمد المهنا

قبل ثلاث سنوات خلت أعطى الدكتور آدم سميث (★) – في محاضرات شفايخ ، Schweich Lectures عن « الشعر الاسرائيلي المبكر في أحواله المادية والاجتماعية » – دراسة تفصيلية لكل ما تبقى من الشعر العبري القديم الذي تضمنته التوراة (العهد القديم) ، والذي يرجع حسب اعتقاده الى الفترة التي سبقت القرن الثامن قبل الميلاد ، ذلك القرن الفذ الذي شهد ظهور الانبياء الكبار من أمثال عاموس وهوشع وميخا واشعياء ، الذين جلبوا لديانة اسرائيل روحا جديدة ، ودفعوا بها الى طريق التطور حتى أصبحت مفعمة بنتائج لا تعد ولا تحصى لتاريخ الجنس البشري • وسيذكر أولئك الذين سمعوا محاضراته هذه ، أو قرأوها في الشكل الذي نشرت عليه فيما بعد أن الدكتور سميث كان أثناء معالجته لهذه البقية الباقية من الادب القديم يدرسها دراسة شاملة بعين مفتوحة على النتاج الادبي لابناء عمومة اسرائيل ، قبائل بدو الجزيرة العربية • ويجد سميث أثناء المقارنة بين الاسلوبين في كل خطوة من خطوات البحث ، أن الثاني يلقي ضوءا على الاول ، ويؤدي الى وضوح القرابة القريبه بين فرعين عظيمين ، وتاريخيين ، من الاصل السامي • فقوله : « ان اسرائيل القديمة تتضح بالجزيرة العربية » يمكن أن يؤخذ هذا في الحقيقة على أنه البديل لوصف محاضراته ، ولا يتوقع من أولئك الذين سمعوها أن ينسوها في وقت قريب ، وذلك لجمالها وحسن بيانها •

(★) JRAS. 1914, pp. 253 - 66

أود فى هذا المساء ـ ان أذنتم لى ـ أن أدرس الموضوع من وجهة نظر الباحث فى الجزيرة العربية القديمة • لعلكم تذكرون أنه قبل مضى أكثر من عامين أعطيتكم فى هذا المكان وصفا لمظاهر الشعر العربى القديم ذكرت فيه أن أقدم ما بقى من هذا الشعر الذى وصل الينا لا يعود الى أكثر من نهاية القرن الخامس ، أو بداية القرن السادس بعد الميلاد على وجه التقريب • لقد قلت : ان هذه القصائد المبكرة وصلت الينا تامة فى كل شىء ، فى نظام الوزن ، والايقاع ، واختيار الموضوعات ، واللغة وطريقة التناول ، وعلى ذلك ، فمن المستحيل الاعتقاد بأن هذه القصائد الراسخة فى تقاليدها ، والمنظمة فى أسلوبها وصنعتها ليست وليدة تطور طويل لهذا الفن، وأيا كان الامر ، فالحقيقة تثبت أن هذه القصائد قد وصلت الينا عن طريق الذاكرة لا الكتابة ، اذ لم تبق هناك الان آثار مدونة •

ومع هذه الفجوة الواسعة بين الادبين ـ من القرن الثامن قبل الميلاد الى القرن السادس بعد الميلاد ـ ربما يبدو من المتعذر أن تبدأ فى اثبات أى علاقة بين هذين النوعين من النتاج الادبى • فالشعر العبرى والشعر العربى مختلفان كثيرا فى الشكل الخارجى • وعلى الرغم من أن اللغة العبرية ، واللغة العربية تجمعهما تقريبا صلة نسب ، فان هناك اختلافا كبيرا بينهما • اذ تزخر اللغة العربية بحروف العلة القصيرة ، وتخضع تراكيبها وفقا للحالة التى تنتهى اليها الكلمات ، مع ضبط أواخرها حيث يستغنى فيه عن ضرورة مساعدة الكلمات • أما العبرية ـ فعلى الرغم من أنها كانت تتمتع فى الماضى بمثل هذا النظام ـ فانها قد فقدت تقريبا كل لواحق الكلمات ، وعلى ذلك أكثرت من حروف العلة الطويلة ، والاواخر الساكنة التى تشكل عقبة كبيرة أمام أى نظام فى علم العروض يشبه العروض العربى • يعتمد الشعر العبرى على الوزن (١) عن طريق النبر ، أو الضربات ، فلكل بيت خمس ضربات أو أربع ، أو ثلاث، أو اثنتان ، واتسم فى تطوره الاخير ـ على الاقل ـ بنظام معقد هو التقابل حيث يعبر عن المعنى فى البيت الواحد مرة أخرى بكلمات مترادفة ، أو يصور التضاد ، أو التتمة فى البيت التالى ، هذا ومن ناحية أخرى نجد أن الشعر العربى يملك نظاما شاملا ومطردا، وأوزانا رائعة تتألف من مقاطع طويلة وقصيرة رتبت وفق نظام محدد ، مع شعور عميق بقيمة كل وزن من هذه الاوزان فى وقت محدد • انه عروض يشبه الى حد كبير علم النظم الاغريقى (٢) فى حين أن الشعر العبرى يمكن مقارنته الى حد ما بالايقاعات الساتورنية (٣) لاوائل الشعراء اللاتينيين ، أو بأناشيد أسلافنا الشماليين التى قام

بتقليدها قبل وقت قصير الشاعر « لوريت » Leaureat في قصيدته عيد الميلاد .

لقد قلت : ان الاوزان العربية قد وصلت الينا في البداية تامة النضج وأن التغييرات التي طرأت عليها خلال قرنين من الزمان كانت طفيفة واستوعبها الشعر القديم . حقيقة نجد في القطع الشعرية المنسوبة لاقدم الشعراء المعروفين لنا من أمثال عبيد بن الابرص ، والمرقش ، وامرىء القيس أوزانا حيرت العروضيين (٤) في عصر الخليل ، بالاضافة الى عدم اقتناع الشعراء المتأخرين بامكانية استعمالها . فنحن نلمس في شعر امرىء القيس جفافا أو خروجا عن القياس ، تجاوزه الشعراء الذين جاءوا من بعده . وعلى العموم ينبغي أن نعترف بأن القواعد الاساسية للاوزان العربية ، وعلم العروض ثبتت في مطلع القرن السادس الميلادي (٥) ومن تم ضبطت هذه القواعد الشعر الذي نظم خلال العصر الجاهلي كله ولا نعرف شيئا عمن ابتكر هذه القواعد أكثر مما نعرف عن مبتكر التفاعيل السداسية أو الاوزان الاخرى البارزة في الشعر الاغريقي . وقد مضى المبدعون في كلتا الحالتين يعملون عبر العصور دون أن يصل الينا عنهم شيء ، وهذا ظن حسن لان احكام صنعة هذا النظام قد أخذت فترة طويلة قبل أن تؤتي ثمارها .

وعندما نتحول من الشكل الفني للقول الى جوهر الموضوع نجد تشابها مدهشا وعظيما بين الشعر الاسرائيلي القديم وأشعار أهل الشمال وأواسط الجزيرة العربية في العصر الجاهلي حيث يبدو وقد تلاشت تلك الهوة السحيقة التي تفصل بين هذين الادبين والتي امتدت الى اثنى عشر أو ثلاثة عشر قرنا . وهناك قول مشهور أصبح من كثرة تكراره مثيرا لكثير من الناس ، وهو أن «الشرق لايتغير» . مع أن كثيرا من أجزاء الشرق في تطور مستمر ، ولقد رأينا في أيامنا هذه تغيرا كبيرا ومفاجئا شمل معظم آسيا ، بحيث فاق كل التوقعات ولكن يبدو أن هناك بلدا آسيويا واحدا غير قادر على مجاراة التطور نتيجة للظروف الطبيعية والعلاقات الاجتماعية ، ذلك هو الجزيرة العربية . ومن المرجح أن عبارتنا المشهورة « الشرق لا يتغير » نشأت عن المقارنة بين القصص الواردة في الكتاب المقدس للعصر البطريركي ، وبين تجارب الرحالة المحدثين في الصحراء السورية وشمال الجزيرة العربية . حقا مرت قرون طويلة على هذه الارض التي لم تشهد من عصر الى عصر الا نزرا يسيرا من التغيير . لقد أخذت الجزيرة العربية فرصتها من التغيير منذ ما يقارب ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، حين جاء الاسلام ، ونجح الخليفتان

أبو بكر وعمر فى توجيه كل قوى البلاد نحو الفتوحات الخارجية الكبرى التى نجحت كما نعرف فى تغيير مجرى حوادث التاريخ فى أكثر من نصف آسيا ، والجزء الاعظم من أفريقيا ، وجنوب أوروبا . أما هؤلاء الذين تخلفوا فى الجزيرة العربية عن تلك الهجرة العظيمة فقد استمروا فى العيش على طريقة أسلافهم . ووصلت الامبراطورية العربية فى خارج الجزيرة العربية الى نهايتها فى مدى قرن ونصف قرن وأصبح الاسلام دينا عالميا كما أصبحت اللغة العربية والادب عالميين أيضا ، وذلك فى الوقت الذى ضاعت فيه السلطة من أيدى عرب الجزيرة . أما أولئك الذين عادوا الى استيطان الجزيرة فقد رجعوا الى عاداتهم والى أسلوب الحياة الذى تفرضه عليهم طبيعة البلاد التى استمرت عبر القرون حتى يومنا الراهن . ويقدم لنا الرحالة المحدثون للجزيرة العربية ــ ولاسيما جارلز دوتى Charles Doughty فى تصويرهم للحياة هناك أفضل شروح لقصائد القرن السادس والسابع . فلقد أوضحوا لنا ــ مع استثناءات قليلة الاهمية ــ أن أسس النظام الاجتماعى ظلت باقية لم تتغير منذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا ، ومن ثم فبامكاننا أن نتحدث عن الشعراء القدامى من خلال مراقبة ما حولنا لنرى كيف يعيش الناس اليوم .

فاذا كانت هذه هى الحالة فى ثلاثة عشر قرنا انقضت ، منذ أن هاجر محمد (صلى الله عليه وسلم) من مكة الى المدينة ، أفليس من الجائز أن نقول : ان هناك حقيقة مثلها وهى وجود ثلاثة عشر قرنا أو أكثر تفصل بين عصر كبار الانبياء الاسرائيليين وبين نبى مكة (صلى الله عليه وسلم) ، هذا السؤال الذى أود أن أضعه أمامكم هذا المساء ، والذى سأوضحه ــ مختصرا قدر الامكان ــ عن طريق مقارنة الامثلة الموجودة فى الادب العبرى بنظائرها فى الشعر العربى القديم .

لعل من الممكن أن يقسم تاريخ بنى اسرائيل الى فترتين عظيمتين : الاولى ، عندما كانوا بدوا يقطنون اما الصحراء على شكل قبائل تنحدر من أصل واحد ، ــ واما الارض الجديدة التى استقروا فيها لاول مرة بعد الفتح الجزئى الذى تم على يد كنعان . الثانية ، فترة التنظيم الاجتماعى والحياة الحضرية التى بدأت مع نشأة المملكة ، والتى عملت على تحويل الامة تدريجيا من محاربين ورعاة الى مزارعين وحضر ، ان الفترة الاولى موضحة فى الاحاديث البطريركية ، وتاريخ الاستيطان فى مصر ، والتيه فى الصحراء ، وفترة القضاء ، ووقائعها مدونة فى الاسفار الخمسة . وهى أسفار يشوع ، والقضاة ، وراعوث وسفرا صموئيل (الاول والثانى) . وتغطى الفترة الثانية كل ما تبقى

من العهد القديم بما في ذلك تاريخ أسفار الملوك وتتماتها ، وسفر أخبار الايام (الاول والثانى) ، وعزرا ونحميا وأسفار الانبياء ، وأدب الحكمة ، وأيوب ، وسليمان ، وأدب التواشيح المتمثل فى سفر المزامير ، الذى يعبر بطريقة خاصة ، من عصر الى عصر ، عن الشعور الدينى لأتقياء بنى اسرائيل ، غير أنه يمثل فى وضعه الحالى مزامير الهيكل الثانى .

وينبغى ان نتوقع وجود تشابه بين الادبين الاسرائيلى والعربى فى الفترة الاولى فقط ، لان ظروف الحياة فى تلك الفترة بالذات كانت متشابهة عند الشعبين . ومن المدهش حقا أن تصل الينا قطع شعرية قليلة من تلك الفترة . ويبدو أنه كانت هناك مجاميع لامثال هذه القصائد التى ظهرت فى وقت ما ، وهى ما تعرف بكتاب « هيشار » ، وكتاب « حروب يهوه » ، وربما أيضا كتاب « الاغانى » ، وجميعها قد فقدت على الرغم من أنه قد نص عليها فى الموجود من النثر . ولكن هناك أثران بارزان لهذه الفترة ، وهما « أنشودة ديبورة » (٦) « ومرثية داود » (٧) فى شاول ويوناثان ، وشغفت كلتا القطعتين ـ منذ أن أدخلتا فى مواعظ صلاة يوم الاحد ـ قلوب مئات الالوف من أبناء الشعب الانجليزى ، وملأت عيونهم بالدموع ، من قرن الى قرن . وكلتا هاتين القطعتين عربيتان فى السمات والمشاعر ، والتركيب والتعبير .

حقا تتمتع « أنشودة ديبورة » أولا بميزة فريدة ، لا تجد لها أثرا فى الشعر العربى انها لحظة تجلى الخالق لعباده ، تلك التى تبدأ بها الانشودة . ولعل عرب الجاهلية وأحفادهم من بدو عصرنا الراهن من احدى السلالات التى لم تتأثر فى الغالب بجلال الرهبة الدينية الموجودة على الدوام . لقد تخيل الاسرائيليون وجود يهوه (٨) فى العاصفة ، وسمعوا صوته فى الرعد ، ومن أعظم وأروع فقرات العهد القديم هى تلك التى تصور مثل هذا التجلى . ولا يفتقر الشعر العربى الى تصوير عواصف الرعد والمطر ، بل هو فيه رائع جدا ، غير أنه لا يحس فيه بالالوهية . وربما أدرك العرب فى الازمان الغابرة حيث كانت الاشياء فيها مختلفة فكرة الاله القبلى مثلما اعتقد الاسرائيليون بوجود يهوه ماشيا فى السحاب والظلام فوق رؤوس جيوشهم (٩) ، ولكن اذا كان الامر كذلك فليس لدينا دليل لهذه الحقيقة . وتمضى الشاعرة ، بعد الاستغاثة بالرب ، وتصوير مسيره من جبل سعير ، فى وصف المحنة التى ابتلى بها بنو اسرائيل تحت استبداد الغرباء ثم تتحدث الشاعرة عن اخلاص قادة الشعب وحماسهم للقضية الوطنية . وتنتقل بعد ذلك الى احصاء القبائل التى

اشتركت في القتـــال ، والى صب سخطها واحتقارها عن أولئـــك الذين تخلفوا عنـــه ٠ ثم تأتي الى ذكر سرعة المعركة وعنفها ٠ كل هذه الابيات يمكن مقارنتها كلمة بكلمة من خلال مئات القصائد العربيـــة التي تصور القتال ٠ ثم تتبع ذلك بلعنة « ميروز » وميروز موضـــع ما كان ليعرف لولا ما حدث حيث كان ينبغي على سكان المدينة التابعة لهذا الموضع أن يهبوا لمساعدة شعب يهوه ، الا أنهم لم يفعلوا ذلك ، بل ربما سمحوا لفلول جيش «سيسرا» المنهزم أن يمر من خلال أرضـــهم بسلام ٠ ثم يأتي بعد ذلك اسباغ البركات العظيمة على ياعيـل امرأة جابر القيني ، وهي نفســـها امرأة عربية ، لان قينا اسم عربي قبلي ٠ واسمحوا لي أن أقدم لكم ترجمـــة الدكتور آدم سميث (١٠) :

(٢٤) تبارك على النســاء يا عيل ٠٠٠٠
على النســـاء في الخيام تبـــارك
(٢٥) طلب مـــاء فاعطتـــــه لبنـــا
في قصعـــة العظمـــاء قدمت زبـدة
(٢٦) مدت يدها الى الوتد ويمينهـــا الى
مضـــراب العملة وضربت سيسرا ،
وسحقت رأسه شدخت وخرقت صدغه
(٢٧) بين رجليها انطرح ، سقط حيث انطرح
فهناك ســـقط مقتـــــــــــولا

لن أكون انطباعا أخلاقيـــا عن غدر ياعيل ٠ فالشاعرة لم تشجعه ٠ ولم يكن من المحتمـــل أنها كانت ستفعل ذلك ٠ ويكفي أن تقول : ان حدثا مثل هذا ـ على الرغم من أنه كان فظيعا حسب كل المقاييس العربية عن الضيافة ـ كان مـــن المحتمل أن يعالج بنفس الطريقـــة في قصيدة عربية تنظمها القبيـــلة المنتفعة من ورائه ٠ وأخـــيرا تأتي الفقرة التي يتخيل فيها أم سيسرا وقد أخذت تتطلع من النـــــافذة ملهوفة على عودة ولدها المنتصر (١١)

(٢٨) من الكـــوة أشـــــرفت وولولت
أم سيسرا من الشـــــــــباك
لماذا أبطأت مركبـــاته عن المجيء ؟
لـــماذا تأخـــــرت خطوات مواكبه ؟
(٢٩) فأجابتها أحكـــــم ســــــيداتها
بل هي ردت جـــوابا لنفســـــها
(٣٠) الم يجـــــدوا ويقسموا الغنيمة ؟
غنيمة ثياب مصـــــبوغة لسيسرا
غنيمة ثياب مصـــبوغة مطـــرزة
ثياب مصبوغة مطرزة الوجهين غنيمة لعنقي !

يظن الدكتور « ســـميث » أن هناك قليلا من الشك فيمن ينبغي أن تعزى اليه الابيات التي قيلت في ياعيل ، وأم سيسرا ٠ فاذا لم تقلها ديبورة ، فان امرأة أخرى قد نظمتها ٠ « ولا أعتقد في قرارة نفسي

أن هناك سببا يدعو الى الشك في أن الابيات من نظم ديبورة ، ولكن اعتذر عن القول : ان أقرب مثال عربي مشابه أستطيع تقديمه ، يأتي ضمن قصيدة قالها أحدهم • ففي عام ٧٥٠ م أو قريب منه نشبت حرب طاحنة في وسط الجزيرة العربية تسمى يوم شعب جبلة ، حيث تمكنت فيه قبيلة عامر بن صعصعة من هزيمة تجمع هائل نظمته القبائل المجاورة ضدها • وفي واحدة من القصائد المشيدة بهذا النصر نجد شاعرا يسمى معقر بن الحمار البارقي يتحدث مثل هذا عن قبيلة ذيبان ، وهي واحدة من القبائل التي هزمت :

وذبانية أوصت بنيها
بأن كذب القراطف والقروف (١٢)
تجهزهم بما قدرت وقالت
بني فكلكم بطل مسيف (١٣)ـ
فأخلفنا مودتها فقاظت
ومأقي عينها جذل نطوف (١٤)

ان مرثية ـ في العبرية « كينا » ـ داود في شارل ويوناثان معروفة لكل انسان بترجمتها في الترجمة المعتمدة ، وهي تشبه تماما ومن كل النواحي المرثية العربية • واليك ما يقوله الدكتور سميث عنها :

« ان الملاحظة العامة الضرورية الوحيدة عن المرثيتين ، اللتين (في ابينير وشاول ويوناثان) وهي عدم ذكرهما اسم الله أو أملهما في حياة أخرى • وهذا أعظم ما يكون وضوحا في المرثية التي رثى فيها شاول ويوناثان لاننا نجد هناك طعما رائعا للحياة ، واستغراقا في حب عميق متدفق ، وتقديرا لفضائل الموتى ، وتسامحا رحبا للذنوب التي قد اقترفها أحدهم • ولهذا تكون كل فطرة سليمة عند التفكير في عظماء الموتى باستثناء فطرة الامل • وربما يقال انه بترك الحزن ـ هذا الحزن العميق الذي جاء على نحو باهر ورفيع في المرثية التي في شاول ويوناثان ـ نجد أن الله والحياة الاخرى قد نسيا بشكل طبيعي • وبالاضافة الى ذلك ، فان صمت هذه المراثي هو أيضا صمت جميع الحكايات والقصائد التي تعرضنا لها ، ولكنها توضح فقدان الامل القدري وهو من خصائص عرب الجاهلية وقدماء اسرائيل ، ونجده حتى في نياحتهم على الاحبة الافاضل » •

وستقرأون لانفسكم من غير شك ترجمة الدكتور سميث الرائعة للمرثية • لقد أحدثت الترجمة المنقحة تغييرا طفيفا على النص القديم ، حتى في الامكنة التي ربما أجرى فيها تغيير بطريقة معتدلة الى حد كبير ، وربما أحس بأن الكلمات كانت ذات قيمة كبيرة في شدتها • وأود هنا على أية حال أن أشير الى اصطلاح تعبيري تتفق فيه العبرية

والعربية فيهذا النوع منالقصائد٠وهو استخدام كلمة « نعم » (في العربية) و « ناعيم » (١٥) (فيالعبرية) قال داود : ـ وفقا للترجمة الرفيعة المعاصرة لنا ـ« لقد كان شاول ويوناثان حبيبين الى النفس ، ولطيفين فيحياتهما »٠وقال أيضا : « يا أخي يوناثان : كنت لطيفا جدا معي » (١٦) ٠ وفيالعبرية « شاؤول فيهوناثان هانئا فيم فيها نعيميم بحايتيهم » ٠« أحيي بيهوناثان نعمت لي مؤاد »٠ وليس في المراثي العربية الان كلمةأكثر الحاحا من كلمة (نعم » ـ كم كان نعم الفتى ، وكم كان نعمة » !ـ مثل : ـ
معذرة على ايراد هذ االنص ـ

نعم الفتى غادرتم برخمان (١٧»
بثابت بن جابر بن سيفان
من يقتل القرن ويروى الندمان

ان هدف كل هذه الصرخةالقصيرة للاسى هي كلمة « نعم » ، وهي كذلك أيضا في مرثية داود معالحاح مزدوج ٠

أما كيف كان العرب يرثونموتاهم ، فاسمحوا لي ـ للمقارنة ـ أن أوضح ذلك لكم باقتباس قطعةمن مرثية دريد بن الصمة في أخيه عبدالله « التي يرجع تاريخها الى٦٠٠ بعد الميلاد تقريبا) ٠

فان يك عبد الله خلى مكانه
فا كان وقافا ولا طائش اليد (١٨)
كميش الازار خارج نصف ساقه
بعيد من الآفات طلاع أنجد (١٩)
قليل التشكي للمصيبات حافظ
من اليوم أعقاب الاحاديث في غد
تراه خميص البطن والزاد حاضر
عتيد ويغدو في القميص المقدد (٢٠)
وان مسه الاقواء والجهد زاده
سماحا واتلافا لما كان في اليد (٢١)
صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه
فلما علاه قال للباطل ابعد (٢٢)
وطيب نفسي انني لم أقل له
كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي

ان ما أود أن أسلم به بشان هذه القصائد الاسرائيلية القديمة هو أن كل الاحتمالات تشير الى أن المعاصرينمن عرب المشرق والجنوب كانوا ينظمون فيالوقت ذاته شعرا من نفس النوع ومن المؤكد تماما أن العرب لم يتعلموا من اليهود أناشيدهم في المعركة والغزو ، او نياحاتهم الرائعة المؤثرة على الموتى ٠ لقد كانوا وما زالوا أميين لايعرفون القراءة ولا الكتابة على الرغم من تمتعهم بمهارة فائقة في نظم الكلمات ، وتقدير عظيم ومرهف لقيمة الاصوات ، وضرائر الوزن ٠

وليس هناك سبب يدعو الى أن تفترض أن حضارة الاسرائيليين في الفترتين اللتين قد أشرت اليهما : الاولى والثانية كانت أعظم من حضارة أبناء عمومتهم أبناء مديان واسماعيل وأدوم • وبصرف النظر عن مهمة اسرائيل كمؤسس لديانة عالمية (٢٣) ، وقدرته الفائقة على التلقي ، وتطوير الافكار الدينية ، فقد كان هناك اختلاف طفيف بينه وبين جيرانه • ودع من يشك في هذا أن يقرأ نقش الملك ميشع على الحجر المؤابي (Moabite Stone) ويتساءل عن مدى سهولة تهيؤ هذا للاستعمال الاسرائيلي اذا ماقرأنا يهوه بدل كموش •

ودعنا نقفز الان فوق ثلاثة أو أربعة قرون ، لنرى أنه في هذه الفترة الفاصلة حدث تطور كبير في ذهن اسرائيل • لقد وضع الانبياء الاسس لدين لا يعتمد على الطقوس بل على الضمير • وتحول يهوه من اله قبيلة الى اله الارض جميعا ، يحب الاستقامة ، ويعاقب من غير شك على الشر أينما وجد ، وهو قريب من كل نفس ، ولا يقيم في معابد بناها الانسان • لقد عرضت فترة الاسر الامة الى اتصال بقوى عالمية أخرى ، فأثرت فيه تأثيرا قويا أدى الى هزيمة بابليون ، ذلك العدو العالمي الجبار ، على يد الامبراطورية الفارسية الفتية • وبعد العودة التي يدينون فيها الى السياسة المتسامحة لملك الفرس عكف الباقون على حياة دينية تأملية ، فأنتج العصر أدب الحكمة ، وهو مايندرج تحت اسمي أيوب وسليمان • وفي أيوب نجد ــ التاريخ التقريبي لما هو مثبت يتطابق تعبيرا مع اشعياء الثاني وكثير من المزامير ــ ان المؤلف وحده من بين الكتاب الدينيين ، (مع استثناء جزئي لمؤلف كتاب راعوث) ، قد خرج عن حدود اسرائيل ، ووضع مشهدا من أحاديثه في جزيرة العرب • وكما قال الاستاذ بوركت Burkitt منذ عهد قريب في محاضرات شفايخ Schweich Lectures

ليس هناك سبب يحمل على الاعتقاد بأن المؤلف شخص غير يهودي ورع ، على الرغم من أنه لا يشير الى التشريع من أول الكتاب الى آخره • وربما كان المؤلف أحد أبناء المدن ، لان معلوماته عن حياة الصحراء ناقصة كثيرا ، اذ جعل من أيوب في وقت واحد ، صاحب جمال وأغنام ــ وعلى ذلك فهو بدوي ــ وعنده ثوران ومحراث للارض : فالحالتان تتعارض احداهما مع الاخرى • وعلى الرغم من ذلك يتضح ان المؤلف أراد لايوب ان يعامل على انه سيد قبيلة عربية يقطن أرض عوص التي تقع على الارجح في الشرق أو الجنوب الشرقي من فلسطين ، أي في الصحراء السورية • وليست هناك أهمية في دقة تحديد الموقع ، لان اهتمامات الكتاب ليست محلية • ويبدو أن هناك تلفيقا في تقديم الفرسان المغيرين لاعلى اعتبار أنهم

كلدانيـــون فحسب ــ وهم الذين اصبحوا قوة أسـطورية بعد الفتح الفارسي ــ بل سبائيون أيضا من أقصى جنوب الجزيرة العـربية ٠ وأصدقاء أيوب رؤساء قبائل مثله ،والمشكلة التي يتحاورون فيها تتصل بعدم اسـتحقاق الرجل الصـــالح للمعاناة ٠ ولعل هؤلاء العلماء الذين يفصلون بين بقية الكتاب وبين كلام أليهوه من الاصحاح الثاني والثلاثين الى الاصحاح السـابع والثلاثين محقون على الرغم من أنني غير مقتنع بالموضـــوع ٠ ولكنني أعتبر ، بل وأعتقد بأن النقاد المتزنين بوجه عام يعتبرون الكتاب مع فقـدان وحدته من صنع شخص واحد ٠

ولا أهـدف من هـــذا الى أن أستعرض معك جميع الكتاب ، كما ليست هناك حاجة تدعو الى أن نفعل ذلك ٠ فالفقرات التي تثير اهتمامنا مضمنه في كلام الله من الاصحاح الثامن والثـلاثين الى الاصـــحاح الحادي والاربعين حيث يوضح فيها معجزة الخلق ٠ وبعد تلاوة عجائب الطبيعة ــ في لغة رائعـة لا نظير لها ــ مثل ارساء الارض ، وعظمة البحر ، وبزوغ الفجـر كل يوم ،وأعماق الهـــاوية العظيمة حيث الجحيم ، وتعاقب النهار والليل ،ومنشأ الثلج والبرد ، وسبل الريح والمطر ، وأصل الندى ، والصقيع ،والتجمـــد ، وتأثـيرات البروج والكـــواكب التي تدور في مواســـمها ، والســحاب والبرق ، ينتقل المتحدث الى بعث الحياة في الطبيعة ٠ وفي نهاية الاصـــحاح الثامن والثلاثين يشير الى اللبوة مع أشبالها في عرينها والى الغـــراب وأفراخه ، وحاجتهم الى القوت الذي يمدهم الله به ٠ ثم يتبع ذلك في الفصل التاسع والثلاثين صـــور الوعل الجبل ، (ياعبل في العبرية ، ووعل في العربية) وحمار الوحش، والثور الوحشي أو البقـــرة البرية (رئيم ، ويقابلها في العربية رئم) والنعامة ، والحصان ، والعقاب ، والنسر ٠ ان كل هـــذه المخلوقات كانت مألوفة عند الشعراء العرب ، وتكرر وصف بعض منها وعلى وجه الخصوص حمار الوحش ، والبقرة الوحشية ، والنعامة والنسر، واتخذ منها أمثلة للسرعة الفائقـــة ، في الوقت الذي وصف فيه كل شاعر من شـعراء الصـحراء الحصـــان وصفا تاما مفصلا ٠ لقد أعطيتكم في بحث سابق في نوفمبر عام ١٩١١ قطعا من قصائد الوصف العربيـة التي تعالج أربعا من الحيـــوانات المختارة كأنماط للسرعة وأشرت الى كيف أن كلمات الشـــعراء كانت متماثلة الى حد كبير مع كلمـــات مؤلف كتـــاب أيوب (٢٤) ٠ ولو أسعف الوقت لاعطيتكم بيانا طويلا بالقطع الشعرية المتماثلة مع وصفه المدهش للحصان ٠ ويبين الشاعر عندئذ في الاصـحاح الاربعـين ، والحادي والاربعين ، في لغة فخمة سامقة الخيال ، القوة والشـــكل المرعب لفرس النهر (بهيمـــوث)والتمســاح (لوياثان) ، ولما كان

هذان الوحشان لا وجود لهما فى الجزيرة العربية فلا حاجة لان نقف عندهما ٠

نحن هنا اذن بازاء فن أدبى رائع ألف على الارجح فى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد ، حيث كان الكاتب يختار متعمدا لمشهده ، وشخصياته الدرامية أرض الجزيرة العربية وشعبها ٠ وهذا يقتضى ضمنا أنه اعتقد فى عصره بأن الحكماء كانوا مؤهلين لتعاطى مثل هذه المحاورات ، وربما كان هذا الاعتقاد موجودا بالفعل ٠ ومن خلال الكلمات التى يضعها على لسان الله يرسم لنا صورا لحياة الحيوان فى الصحراء متفقا فى ذلك بوجه عام مع تلك الصور التى رسمها الشعراء العرب فى القرن الخامس بعد الميلاد ٠ وفى بعض الحالات كانت معلوماتهم أسمى من معلوماته فمثلا فيما يتصل بالنعام نجد أن اتهامه بالحمق لا يمكن تبريره ٠ فخلال النهار يغطى البيض قليلا بالرمل ، ويحفظ دافئا بما فيه الكفاية عن طريق الشمس ، وفى الليل أو عندما تنذر السماء بالمطر ، يقوم الظليم محترسا باحتضان البيض ٠ كل هذه المعلومات وعاها العرب وعرضوها فى أشعارهم ٠

ويظهر لى أن النتيجة الملائمة للعقل هى أن عصر المؤلف قد شهد شعراء فى الجزيرة العربية ، عالجوا تماما نفس الموضوعات ، كما اختارها خلفاؤهم من بعدهم بنحو ألف عام ، واستخدموها بنفس الطريقة ٠ وأما بشأن ما اذا كان هناك حينئذ أى وزن من الاوزان الثابتة للشعر العربى مؤهلا للاستعمال فاننا لانستطيع أن نخبر بذلك ، غير أن درجة الاتقان التى وصلتها هذه الاوزان عندما أصبحت فى البداية معروفة لنا يقتضى أن نسلم بوجود تطور تدريجى ربما استغرق قرونا طويلة لانجازه ٠

وهكذا فبمقارنة الشعر المبكر ذى العاطفة الفطرية عند العبريين بنظيره من الشعر العربى أولا : وبمقارنة نتاج الفن الادبى للسابقين فى عصر التأمل والتحضر بما قدمته الجزيرة العربية خلال القرن السابق على « محمد صلى الله عليه وسلم » ثانيا : تقودنا هذه المقارنة الى نتيجة مؤداها أن فن الشعر العربى فى عصر قبائل اسرائيل وفى الفترة الادبية المتاخرة أيضا قد غطى على الارجح نفس الموضوعات مثلما فعل ذلك فى بداية العصر الاسلامى ٠ ولعل السبب الوحيد فى عدم وجود الآن أى نص من هذه النصوص التى تنسب الى العصور القديمة ، يعود الى أنها لم تدون كتابة ، ولكنها ماتت بموت الذاكرة البشرية التى حفظت فيها ٠

حواشي المعرب

(١) حظي الشعر العبري باهتمام عدد كبير من المستشرقين لارتباطه الوثيق بكتب العهد القديم ، كما لقيت اوزانه عنايه خاصة من الباحثين في الساميات والدراسات المقارنة ، ومع وفرة الدراسات والبحوث في الموضوع الثاني الا أن العلماء والدارسين لم يتفقوا على قواعد بعينها يقوم عليها الوزن ، بل ترك الباب مفتوحا على مصراعيه للبحث عن قوانين جديدة تنتظم الشعر العبري القديم • ولعل اهم القوانين التي ثار حولها جدل واسع بين العلماء تتلخص في النقاط التالية :

أ ـ يرتكز الوزن في الشعر العبري القديم على عدد المقاطع بغض النظر عن طولها أو قصرها • ويعلق الدكتور القصاص في كتابه الشعر العبري ص ١٩ على هذا الرأي فيقول : (ان القول بأن الشعر العبري يقوم على أساس عدد من المقاطع الطويلة والقصيرة أصبح من سقط المتاع في يومنا هذا) •

ب ـ تحدد وحدة الوزن في نبر الكلمه •• بمعنى أن كل كلمة ذات فكرة تضم مقطعا منبورا ، وقد تحتوى الكلمة على عدد من المقاطع المنبورة (فكل مقطع منبور يكون مع المقاطع السابقة غير المنبورة ، والمقطع التالي الذي ينخفض فيه النبر وحدة وزنية •• وليس لعدد المقاطع غير المنبورة أيه أهمية ، بمعنى أن كل كلمه تتكون من مقطع منبور يمكن أن تحل في الوزن محل سلسلة بأسرها من المقاطع) • المصدر السابق ص ٢٠ ـ ٢١ •

ج ـ قانون نظام الفقرة • ويراد بالفقرة الشعرية مجموعة معينة من الابيات ذات معنى تام وتسير وفقا لترتيب خاص • ولم يسلم هذا النظام من الانتقادات ، فقد نقل الدكتور القصاص رأيا لاحد أتباع المدرسة الفقرية بده Budde يشير فيه الى مواطن الضعف في هذا النظام • يقول بده : من الاخطاء التي يتعرض لهـا الباحثون أنهم يعمدون بادىء ذي بدء الى تقسيم القصيدة الى فقرات على حساب المعنى فيشوهونها ويزيفون نظامها ومعناها • فيجب علينا اذن أن نعمد عمدا الى تقسيم القصيدة الى الاقسام التي يقتضيها المعنى • ثم بعد ذلك نبحث عما اذا كانت هذه الاقسام تصلح لان تكون فقرات سليمة • المصدر السابق ص ٢٨ •

د ـ قانون التقابل ويقوم على أساس أن الجملة الشعرية تتكون من شطرين متساويين بينهما علاقة وثيقه من حيث المعنى ، أو عن طريق ترادف الكلمات ، ويسيران معا في خطين متوازيين • المصدر السابق ص ١٣ •

(٢) لعل جارلز ليال يريد من ملاحظته هذه أن يوحى لنا بطريقة غير مباشرة الى أن علم العروض في العربية قد تأثر بعلم النظم في الاغريقية ، أو قام أساسا على شعر اليونان • وهى دعوى رددها المستشرق الالماني ورداف فستفال Rodolf Westphal من قبل في كتابه (علم النظم العام عند الشعوب الهند أوروبية والشعوب السامية في ضوء علم اللغة المقارن •

Allgemeine Metrik der indoger-manischen U. semitischen Volker auf Grund-lage der vergleichenden Sparach-wissenschaft, S. 475, Berlin, 1892

وتابعه في هذه الدعوى من غير سند علمي المستشرق ج• تكاتش J. Tkatsch في كتابه (الترجمة العربيـة لكتاب أرسطو في الشعر •

Die Arabische Ubersetzung der Poetik des Aristoteles, s. 100, Wien, 1928.

(٣) وزن من أوزان الشعر الروماني المبكر ، حيث يتالف فيه البيت من شطرين ، يتضمن الاول منهما سبعة مقاطع ، منهـا ثلاثة منبورة ، ويتضمن الثاني ستة مقاطع ، اثنان منها منبوران • راجع د• عبداللطيف احمد علي : مصادر التاريخ الروماني ص ٣٥ ـ دار النهضـة العربية ـ بيروت سنة ١٩٧٠ •

(٤) حقا هناك اضطراب فى أوزان بعض القصائد المنسوبة الى هؤلاء الثلاثة منها قصيدة عبيد المشهورة :

أقفر من أهله ملحوب
فالقطبيات فالذنوب
فراكس فثعيلبات
فذات فرقين فالقليب

فكثرة عللها وزحافاتها ادت الى اضطراب وزنها :
ومنها قصيدة المرقش الاكبر ومطلعها :

هل بالديار ان تجيب صمم
لو كان رسم ناطقا كلم

وهي من وزن السريع ، غير أن بعض أشطر القصيدة انتقلت فيها التفعلية من مستفعلن الى متفاعلن مثل قوله :

ما ذنبنا في أن غزا ملك
من آل جفنة حازم مرغم

وقوله :

بيض مصاليت وجوههم
ليست مياه بحارهم بعمم

وقوله :

والعدو بين المجلسين اذا
ولى العشي وقد تنادى العم

ومنها قصيدة امرىء القيس ومطلعها :

عيناك دمعهما سجال
كأن شأنيهما أوشال
أو جدول فى ظلال نخل
للماء من تحته مجال

وهي من مخلع البسيط ، وتلتقى مع قصيدة عبيد السابقة فى كثرة العلل والزحافات والزيادة .

(٥) يخلط الباحث هنا بين الاوزان كأنغام وايقاعات أدركها الشعراء باحاسيسهم الفطرية للنغم ، وبين علم العروض كقواعد تنتظم هذه الانغام . فعلم العروض وضعت أساساته وتم بناؤه فى القرن الثانى الهجرى ، الثامن الميلادى على يد الخليل ابن احمد الذى يعتبر الاب الحقيقى لعلم العروض . ويذكر الرواة أن الدافع الاساسى الذى دفع الخليل الى البحث فى أصول قواعد النغم هو ما شهده من اجتراء الشعراء المحدثين فى عصره على استخدام أوزان لم تسمع عن العرب ، فلم تستسغ ذلك نفسه ، واعتكف فى بيته أياما وليالى حتى أنه كان يقضى الساعات فى حجرته وهو يوقع باصابعه ويحركها حتى تمكن من ضبط الاوزان التى استعملها العرب . ويقول الجاحظ : وضع الخليل بن احمد لاوزان القصيد ، وقصار الارجاز القابا لم تكن العرب تتعارف تلك الاعاريض بتلك الالقاب ، وتلك الاوزان بتلك الاسماء ، كما ذكر الطويل ، والبسيط والمديد ، والوافر ، والكامل ، واشباه ذلك . وكما ذكر الاوتاد والاسباب والخرم والزحاف . (انظر البيان والتبيين ، ج١ /١٣٩ تحقيق ع. هارون ـ القاهرة ١٩٦٠) ، وهكذا نرى أن علم العروض ولد مستويا الى حد كبير، بدليل أن بعض الناس فى عصر الخليل قد أحسوا فعلا بصعوبة هذا العلم . فقد روى أن رجلا طلب من الخليل نفسه أن يعلمه هذه الصنعة ، وظل الرجل يتردد على الخليل فترة من الزمن ، ولم يتمكن من استيعاب هذا العلم ، فأراد الخليل أن يصرفه عنه بطريقة لبقة ، فقال له يوما قطع قول الشاعر :

اذا لم تستطع شيئا فدعه
وجاوزه الى ما تستطيع

ففهم الرجل قصد الخليل ولم يعد اليه .. ولا تنكر ان تلاميذ الخليل ومن جاءوا بعده قد استنكروا عليه اشياء ، واضافوا اليه اشياء أخرى منها استنكار الاخفش لبحرين ذكرهما الخليل وهما المضارع والمقتضب ، واستدراكه عليه بحرا لم يذكره وهو المتدارك ، ومنها تلك المصطلحات التى الحقت بهذا العلم مثل الروى ، والقافية، والبيت ، والمصراع ، ومنها شروح تلاميذه على القواعد التى وضعها ، والتى ربما تكون مسئولة الى حد ما عن زيادة تعقيد هذا العلم . كل هذا لا يمكن مقارنته بالجهد الرائع الذى بذله الخليل فى ابراز هذا العلم حيا متكاملا . وعلى ذلك فلم

يكن الباحث مصيبا فيما سيقوله في الجملة التالية مباشرة من أننا لا نعلم عمن اخترع هـــذه القواعد اكثر مما نعلم عن مبتكر التفاعيل السداسيه في الشعر الاعريقي ٠ واذا جاز اطلاق مثل هذا الحكم على أوزان الشعر الاعريقي ٠ فلا يجوز اطلاقــه على قواعد الشعر العربي ، لان نشاة تاريخ هذا العلم محفوظة ومدونه ٠

(٦) أنظر الانشودة في سفر القضــــاة ١/٥ ـ ٣١ ، ويصف سفر القضاة ٤/٤ـ٥ ديبورة بأنها (امرأة نبية زوجه لفيدوت هي قاضية اسرائيل في ذلك الوقت ٠٠ وكان بنو اسرائيل يصعدون اليها للقضاء) ٠

(٧) أنظر المرثية في ســـفر صموئيل الثاني ٢٣/١ ـ ٢٧ ٠

(٨) ان كلمة (يهوه) في شريعه موسى في أول مراحلها مشتقة من كلمة (ياهو) أى الاله الواحد ، وقد أشير اليه بضمير الغائب تنزيها لعدم ذكر اسمه ٠ الا أنه بمرور الوقت أسبغ اليهود على هذا الاسم (يهوه) صفات بشرية ابعدته تماما عن صفات الاله ٠ أنظر سفر الخروج ١٢/١٢، ٢٤/٩ـ١١ ، ٢٥/٩ ، ١٤/٣٢ ، صموئيل الاول ١٥/١٠ـ١١ ٠

(٩) جاء في سفر الخروج ١٣/٢٠ـ٢٢ النص التالي : (وارتحلوا من سكوت ونزلوا في ايثـــام في طرف البرية ، وكان الرب يسير أمامهم نهارا في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلا في عمود نار ليضيء لهم ، لكي يمشوا نهارا وليلا ، لم يبرح عمـــود السحاب نهارا وعمود النـــار ليلا من أمام الشعب) ٠

(١٠) تكاد تكون ترجمـــة الدكتور آدم سميث لهذا النص ترجمة حرفية ، ولهــذا فضلنا عليها نقل النص مباشرة حســـبما جاء في سفر القضاة ، ٢٤/٥ـ٢٧ ٠

(١١) أنظر سفر القضاة ، ٢٨/٥ـ٣١٠

(١٢) أنظر سقط الزند ج ١٣٦٦/٣ ، والبيت الاول من شواهد الخزانة ج٢٨٩/٢، ط٠ بولاق ، و ج ١٥/٥ ، تحقيـــق ع٠ هارون ط٠ القاهرة ١٩٧٦ م ٠
القراطف : جمع قرطف ، وهو كســـاء من القطيفة ٠ القروف : جمع قرف ، وهي قشور الرمان ٠

(١٣) المسيف : الذى وقع في ابله مرض فذهب ماله ٠

(١٤) قاظت : اقامت في القيظ ٠ والماقي : لغة في الموق ، وهو طرف العين من جهـــة الانف ٠ جذل : هكذا وردت في السـقط وهي تصحيف وفي الخزانة حذل بفتح الحاء المهملة وكسر الذال المعجمة : الموق الذى فيه بثر وحمرة ٠ نطوف : أى سائل ٠

(١٥) تعني كلمة (ناعيم) العبرية : حلـــــو ، لطيف ، جميل ، عذب ٠ مريح ٠ ملائم ٠ وهي صفة ٠ والفعل منها (نعام) بمعنى لطف طـــاب عذاب ٠

(١٦) الترجمة العربية لهذين النصـين كما يرويها الكتـــاب المقدس ـ صموئيل الثاني الاصحاح الاول ـ هي :

٢٣ ـ (شـــاول ويوناثان المحبوبان والحلوان في حياتهما) ٠

٣٦ ـ (٠٠٠ ياأخي يوناثان كنت حلوا لي جدا) ٠

(١٧) على الرغم من ركاكه هذا المثـال الذى ذكره الباحث واعتذاره عنه ، فان كلمه (نعم) كثيرا ما تتردد في المراثي العربية القديمة ، ويراد منها بيان مدى استحقاق الفقيد للمدح ، وقد تتردد في المرثيه اكثر من مرة وهنا يراد بها اظهار التحسر على الفقيد وعلى الصـفات النبيله التي رحلت معـــه تقول ليلى الاخيلية في رثاء توبة الحميرى :

لنعم الفتى ياتوب كنت ولم تكن
لتسبق يوما كنت فيـــه تحاول

ونعم الفتى ياتوب كنت اذا التقت
صدور الاعالى ، واستشال الاسافل
ونعم الفتى ياتوب كنت لخائف
أتاك لكى يحمى ونعم المحامل
ونعم الفتى ياتوب جارا وصاحبا
ونعم الفتى ياتوب حين تناضل
(امالى الشريف المرتضى ج ١/٨٧)

(١٨) المرثيه بتمامها فى شرح حماسة أبى تمام للمرزوقى ج ٢/٨١٢-٨٢١ ، القاهرة ١٩٦٨ ، ومطلعها :

نصحت لعارض وأصحاب عارض
ورهط بنى السوداء والقوم شهدى

وكان من خبر هذه المرثية ان عبد الله اخا دريد غزا غطفان فى جمع من بنى جشم وبنى نصر فظفر بهم ، وساق اموالهم بمنعرج اللوى ومضى بها . وما ان ابتعد قليلا عن غطفان حتى دعى الى قسمة الغنائم فنصحه دريد بالرحيل قبل وصول غطفان فأبى ، فأدركتهم غطفان فسقط عبد الله جريحا فى المعركة ، وجعل دريد يذب عن أخيه رماح الاعداء حتى قضى اخوه .

الوقاف : الجبان ، الطائش : الخفيف ومعنى قوله ولا طائش اليد : اى ان يده لا تزيغ عن فعل الصواب .

(١٩) الكميش : الخفيف السريع الحركة ، بعيد من الافات : اى سليم الاعضاء قوى البنية ، طلاع انجد : أى ضابط للامور غالب لها .

(٢٠) خميص البطن : أى طاوى البطن ، العتيد : الحاضر المهيأ ، المقدد : الممزق .

(٢١) يقول : ان اجتمع عليه اعسار ، ونفاذ زاد وجهد ، زاده ذلك كرما واتلافا للمال .

(٢٢) صبا ما صبا : اما أن يكون بمعنى تعاطى الجهل والفتوة ما دام صبيا فلما ظهر الشيب فى رأسه أبعد الجهل والباطل عن نفسه زهدا فيه واما أن يكون على معنى اقترف اللهو والجهل ما اقترفه وتعاطه الى أن علاه المشيب .

(٢٣) لم يقل احد من الباحثين فى الديانة اليهودية حسب ما أظن بأن الدين اليهودى دين عالمى ، بل تثبت الوقائع والحوادث التاريخية بأن شريعة موسى كانت مخصوصة ببنى اسرائيل .

(٢٤) أنظر بحث ليال هذا معربا فى مجلة الشعر القاهرية ، العدد الحادى عشر يوليو ١٩٧٨ ، ص ٢٤ - ٤٤ .